المبحث الثالث

المنهج ، والخروج من زمن التيه

أولاً : مشكلة المنهج

لعل من أشق الأمور وأصعبها على الباحث في الشعر العربي القديم عامة ، وفي الشعر الجاهلي خاصة ، هو : (مواجهة الشعر) كيف نحلل قصيدة جاهلية ما ؟ ما المنهج الصحيح الذي إذا طبقه الباحث استطاع أن يصل إلى فهم واع للقصيدة التي بين يديه ، أو التي هوبين يديها ؟ .

إن مشكلة (المنهج) هي قلب المعاناة النقدية لدينا ، نأتي إلى القصائد ونتأملها ، وكأننا نتأمل تماثيل حجرية جامدة الملامح ، منصوبة داخل صناديق زجاجية باردة في متحف ما ، نأتي إليها فنتمتم بكل التعاويذ الأعجمية ساعات متطاولة ، وحين نصمت ، يعود السكون المميت يخيم على المكان ، ويظل التمثال الحجري المنتصب ينظر في الهواء بلا معنى ، ونغالب اليأس ، ونجرب تعويذة أعجمية أخرى ، بلحن آخر ، ولكن ما من مجيب ، لعل تمثالنا الوقور لايفهم الرطانة الرومية ، لماذا لانجرب ـ ولو على سبيل الترويح عن النفس ـ لماذا لانجرب أن نحدثه بعربية فصيحة؟ نسأله : من أنت؟ ما قصتك؟ نقول له : إننا نريد أن نحدثك ، وأن نشكو إليك وتشكو إلينا ، وما أعجب ما حصل ، ذلك القناع الحجري ما هو إلا قشرة طينية سرعان ما تهاوت ، وبدا من تحتها بشرًا ، وثب من صندوقه الزجاجي ، ونظر إلينا نظرة الأب لابن طال غيابه عنه ، وحدثنا عن شجوه وشجنه ، وقصَّ معاناته وألمه ، وحبه ، وحربه ، وانتصاراته ، وانكساراته . تلك هي قصة الناقد العربي مع الشعر العربي القديم ، يأتي إليه مدججًا بأحدث المناهج الأجنبية ـ أو ما يظن أنها أحدثها ـ وعبثًا يحاول أن يحاور القصائد التي لاتلبث أن تجمح بعيدًا عنه ، فما السبيل ؟ يُطرح أحيانًا

ما يسمى : (المنهج التكاملي) وهي كلمة مطاطية غامضة ، تتحول عند بعض النقاد والباحثين إلى مايشبه الثوب المرقع برقع مختلفة الألوان والأشكال ، من شتى المناهج الأجنبية ، وبنسب تتفاوت حسب هوى الباحث وثقافته ، فما السبيل إذن ؟

إن الباحثين الأجانب عكفوا على تراثهم وآدابهم ، ومنها كان المنهج يُستنبط ، وهذا الشأن في كل الأمم الحية ، وإذا أردنا أن ننقذ النقد العربي الحديث من أزمته ، فإن هذا هو السبيل : العكوف على تراثنا ، وشعرنا ، ثم استنباط المنهج .

ومن أزكى ما في التراث من معرفة استرفدها هذا البحث للكشف عن (وحدة القصيدة الجاهلية) هو : (مباحث علم المناسبة في القرآن الكريم) وهو علم جم المنافع ، عظيم الخطر ، بالغ الدلالة في موضوع هذا البحث ، بل هو من ألصق ما يكون به ، وقد يقول قائل : إن هذا العلم خاص بالقرآن الكريم ، ولايجوز قياس حال القرآن الكريم على حال سواه من كلام البشر .

والرد على ذلك : أن الله عز وجل أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤). وقال عز وجل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ٣) . فقد سار القرآن الكريم على سنن العرب في كلامها وبيانها ، فقوانين البيان فيهما واحدة ، وإذا كانت تلك القوانين في شعر الجاهلية بليغة ، فهي في القرآن معجزة ، تفوت قدرة البشر ، ومما يزيدك بصيرة بعمق هذه الصلة بين شعر الجاهلية والقرآن الكريم أن بعض الذين لم يقبلوا (علم المناسبة) من العلماء ـ لما رأوا عند بعض من مارسه من التكلف ـ اتخذوا فكرة مجيء فنون مختلفة في كلام العرب في المقام الواحد شبهة يثيرونها حول مبدأ (النظام) في القرآن الكريم ، فزعموا أنه كما أن من «عادتهم أن يأتوا بفنون مختلفة ، وطرائف متباينة في المقام الواحد عاريًا من النظم والارتباط» ورأوا أن القرآن سلك

المسلك ذاته [1] . وهذا شبهة ردها العديد من العلماء ، وذهبوا إلى قيام مبدأ (النظام) في القرآن «ومرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة» [2] . وهو ارتباط آي القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني [3] . وقال الإمام الرازي : «إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط» [4] . وقد ذكر العرب من أوجه البلاغة وجودة الكلام : «القوة على البيان مع حسن النظام [5] . و«أن يكون أول كلامك يدل على آخره ، وآخره يرتبط بأوله» [6] فهذا المبدأ الجمالي الرفيع تحقق في القرآن ، كما تحقق في الشعر الجاهلي ، قال الشاطبي عن ذلك في شأن القرآن الكريم : «فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها ، منها ماهو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب ، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم ، ومنها ماهو المقصود في الإنزال . . ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت» [7] وقال عن سورة المؤمنين : «وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة ، وإن اشتملت على معان كثيرة» [8] .

---

(١) محمد عناية الله محمد ـ إمعان النظر في تناسب الآي والسور ـ رسالة ماجستير مخطوطة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية أصول الدين ، الرياض ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م

(٢) المرجع نفسه ـ ٢٥

(٣) نفسه ـ ٢٤

(٤) السيوطي ـ الإتقان في علوم القرآن ـ دار الفكر للطباعة والنشر ـ دط ، دت ، ١٠٨/٢

(٥) ابن رشيق ـ العمدة ٢٤٤/١

(٦) ابن رشيق ـ نفسه ـ الجزء نفسه والصفحة نفسها .

(٧) الموافقات في أصول الشريعة ـ تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ، ٢٦٧/٣ ، ٢٦٨

(٨) المصدر نفسه ـ ٣/ ٢٦٨

وقال عبد الله دراز : «قال الأئمة : إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة . وإنه لاغنى لمتفهم نظم السورة استيفاء النظر في جميعها ، كما لاغنى عن ذلك في أجزاء القضية»[1].

ثانيًا : تعريف علم المناسبة

هو «علم تعرف منه علل الترتيب ، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب ، وثمرته : الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب ، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة ، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال»[2].

«والمناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام ، أو خاص عقلي ، أوحسى أوخيالي ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات ، أو التلازم الذهني ، كالسبب أو المسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين ، والضدين ونحوه . وفائدته : جعل أجزاء الكلام آخذًا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلاحم الأجزاء»[3].

كيفيته :

يقول البقاعي ـ رحمه الله ـ «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب

---

(١) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ـ دار القلم ، دط ، دت ، ص١٥٩ .

(٢) برهان الدين البقاعي ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م - ١/٥ .

(٣) السيوطي ـ الإتقان ـ ٢/١٠٨ .

والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له . . فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن» [1] .

ويقول في موطن آخر : «وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها»[2]. فإذا قارنا بين كلامه هذا ، وبين ما عمله في سورة الفاتحة لاستخراج الغرض ، نجده يشرح السورة ، حيث يعدد المعاني التي بنيت عليها الفاتحة ، وينظر في الأمر الجامع لهذه المعاني ، فيكون هو المقصود والمغزى ، ثم إن هذا المعنى المقصود يتطلب مقدمات ، ثم ينظر مايكون أولاً ثم ثانيًا ، وهكذا ، ومع أنه ذكر الغرض الذي سيقت له الفاتحة من بداية كلامه ؛ إلا أنه حرص على أن يرصد نتائج بحثه ثم يفصلها .

فإذًا معرفة مقصود السورة ، أي (المعنى الأم) أو (الغرض) يسهل ربط أجزاء السورة بهذا الغرض المركزي ، وذلك يتم عبر الخطوات التالية :

١- قراءة متمعنة للنص ؛ لمعرفة الأجزاء بدقة شديدة ، واعتصار دلالات الأجزاء ، للنفاذ منها إلى المعنى المحوري في الكلام كله .

٢- تحديد المعنى المحوري للنص ، بإيجاد المشترك بين دلالات الأجزاء أي : (استخراج الغرض) .

٣- البحث في علل ترتيب الأجزاء :

مثل : الغرض ماذا يحتاج من مقدمات ؟ وماذا يكون من هذه المقدمات أولاً ، ثم ماذا يكون ثانيًا ، وثالثًا؟ .

أي : (مراتبها) .

---

(١) السيوطي ـ الإتقان ـ ١١/١

(٢) البقاعي ـ نظم الدر في تناسب الآيات والسور ـ ٥/١ .

أي أن الغرض يستدعي ترتيبًا مخصوصًا للكلام ، فتكون المقدمات ذات مراتب في القرب والبعد من الغرض المقصود .

٤- النظر في حركة الكلام وهي تتقدم في سيرها ، فقد ينعطف الكلام إلى بيان أمر ما ، وكأنه فرع ينبت من غصن مقدمة ما ؛ لأن نفس السامع استشرفت إلى شيء فيه ، فيشبع الكلام تلك الحاجة بهذا التفريع ، ثم يعود إلى ما كان فيه .

أما السيوطي فقد بحث العلاقات بين الآيات حيث يقول :

« ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط ؛ لتعلق الكلم بعضه ببعض ، وعدم تمامه بالأولى فواضح ، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير ، أو الاعتراض ، أو البدل ، وهذا القسم لاكلام فيه ، وإما أن لايظهر الارتباط ، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به ، فإما أن تكون : معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أولا . فإن كانت معطوفة فلابد أن يكون بينهما جهة جامعة . . وإن لم تكن معطوفة ، فلابد من دعامة تؤذن باتصال الكلام ، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط وله أسباب :

أحدها : النظير ، فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء . .

الثاني : المضادة ، كقوله في سورة البقرة : إن الذين كفروا سواء . . . » فإن أول السورة كان حديثًا عن القرآن الكريم وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان ، فلما أكمل وصف المؤمنين ، عقَّب بحديث الكافرين ، فبينهما جامع وهمي ، ويسمى (التضاد) . .

الثالث : الاستطراد ، ويقرب من الاستطراد (حسن التخلص) . . وقال بعضهم : الفرق بين التخلص والاستطراد أنك في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية ، وأقبلت على ما تخلصت إليه ، والاستطراد تمر بذكر الأمر الذي

استطردت إليه مروراً كالبرق الخاطف ، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه ، وكأنك لم تقصده أو إنما عرض عروضًا . . ويقرب من حسن التخلص (الانتقال) من حديث إلى آخر ؛ تنشيطًا للسامع مفصولاً بـ (هذا) ، كقوله في سورة (ص) بعد ذكر الأنبياء : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (ص:٤٩) . . ويقرب منه (حسن المطلب) . . وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) [١].

كذلك من مباحث علم المناسبة النافعة في البحث الأدبي ، مبحث :

(العلاقة بين مطلع السورة ومقصدها) ومبحث (العلاقة بين مطلع السورة وخاتمتها)[٢].

هذه المباحث كلها قابلة لأن تغرس في قلب البحث الأدبي ، فتنمو وتعلو ، وتؤتي ثمارها المرجوة بإذن الله وقد سعيت في هذا البحث إلى الاستفادة ـ على قدر ما استطعت ـ من مباحث هذا العلم الشريف في تحليل القصائد ، ودعمت ذلك بالاهتداء أيضًا بمنهج الشيخ محمود شاكر في تحليله لمرثية ابن أخت تأبط شرًا ، وخاصة عنايته البالغة بتفسير الألفاظ ، ومانبّه إليه الباحثين من خطورة هذه المرحلة وأهميتها .

ثالثًا : طبيعة المنهج في هذا البحث

إن منهج تحليل القصائد في هذا البحث يسير وفق ما يلي : [٣].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ـ ١٠٩/٢ ، ١١٠

(٢) سماه السيوطي « مناسبة فواتح السور وخواتمها ـ ١١/٢ بل بحثوا أيضًا مناسبة أسماء السور لمقاصدها » انظر السيوطي ـ المصدر نفسه ـ ١١٤/٢

(٣) تحليل القصائد الواردة في هذا البحث كان متجهًا إلى (النقد الداخلي) اعتمادًا على رواية المفضل الضبي ، ثم على ما بدا سلامته من عوادي الرواية من القصائد الجاهلية الواردة في المفضليات . أما ما شابتها شوائب اختلاف الروايات المفضي إلى عدم الاطمئنان إلى بنائها ، فاستبعد من البحث .

١- القيام بقراءة استكشافية للقصيدة كلها ، أحدد من خلالها قدر الإمكان ـ مايلي :

أ- الفكرة العامة التي تتحدث عنها القصيدة .

ب- النمط البنائي الذي تنتمي إليه القصيدة ، إما بسيطة ، أو مركبة .

ج-ما يوجد ضمن هذا النمط من موجات شعرية تتشكل في صورة فصول .

٢- مرحلة تفسير الألفاظ :

هذه المرحلة لها مستويات عدة ، كل مستوى يفضي إلى ما بعده ، والعمل خلالها أشبه ما يكون بعملية تنقيب ، فهي مرحلة (التنقيب اللغوي) والبعض ينظر إلى هذه المرحلة بشيء من التساهل والتهاون ، ويظن أنه يجزؤه العودة إلى كتب المعاجم ، مثل اللسان وغيره من المعاجم ، ثم يستخرج معنى الكلمة المطلوبة ، ولكن الحقيقة أن الأمر ليس دائمًا بهذه السهولة ، بل يمكن القول أنها من المراحل الخطيرة ، والدقيقة في تحليل الشعر ؛ لأن أي زلل أو انحراف في هذه المرحلة سيلقي بظلاله القاتمة على عملية التحليل ، وقد ينتهي بنا ذلك إلى نتائج إن لم تكن خاطئة ، كانت ناقصة أو مجتزأة . وتتضاعف أهمية هذه المرحلة وصعوبتها عند معالجة القصائد الجاهلية ، فما هي طريقة العمل في هذه المرحلة ؟

يتم العمل فيها ضمن الحقول التالية :

الحقل المعجمي : وهو ذو شقين :

حقل معجمي عام : بالعودة إلى كتب المعاجم ؛ للكشف عن معنى الكلمة المراد تفسيرها لمعرفة معناها الحسي المادي ، ثم ماخرجت إليه من معان مجازية خلال استخدامها ، أي تفحص الكلمة ضمن دائرة الحقيقة ، ثم ضمن دائرة المجاز ، وعلى المحلل كي يحدد معنى الكلمة المطلوبة أى في دائرة الحقيقة هي أم في دائرة المجاز أن يفهم جيدًا السياق الذي وردت فيه ، في القصيدة موضوع الدراسة .

حقل معجمي خاص :العودة إلى كتب متخصصة في فقه اللغة مثل :

«فقه اللغة ، للثعالبي» و«الغريب المصنّف ـ للقاسم بن سلام» «كفاية المتحفظ في اللغة ـ لابن الأجدابي» و«المعجم في بقية الأشياء ، للعسكري» ، وغيرها .

بعد اجتياز الكلمات لهذين الحقلين ،منها ما نصل إلى تفسير نطمئن إليه ، أما بعضها الآخر ، فتظل في حاجة إلى مزيد من البحث ، ويكون ذلك ضمن الحقل التالي .

حقل القرآن الكريم والسنة الشريفة :

قد ترد الكلمة موضع الفحص في القرآن الكريم ،أو في السنة الشريفة في سياق مقارب لسياقها في الشعر ؛ فيلقي ذلك مزيدًا من الضوء عليها ؛ وذلك لأن المفسرين بذلوا جهودًا كبيرة في تفسير الألفاظ ،ومن النافع الإفادة من ذلك في تحليل الشعر .

فإذا لم ترد في أي منهما أو كان السياق مختلفًا ،عندها نتجه للحقل التالي وهو :

٣- حقل الشعر :

من القواعد الذهبية في تحليل الشعر :ضع الشعر بإزاء الشعر ،ينطق الشعر . أي أن الشعر يمكن أن يفسر بعضه بعضًا ،فنبحث عن الكلمة المطلوبة في نطاقين :

أ- شعر الشاعر الذي نحلل قصيدته ،فقد ترد الكلمة ذاتها في قصيدة أخرى له بصورة تفسرها وتجليها ، وتضيء دلالتها ، وهذه هي : (المرجعية الصغرى) .

ب-شعر العصر الذي تنتمي إليه القصيدة وهو الشعر الجاهلي ، وهذه هي : (المرجعية الكبرى) .

مثلاً : قال شاعر مشبهًا ناقته : «كأنها فدن تطيف به النبيط مرفّع»[1] .

---

(١) المفضليات ـ ٤٩ .

ما مراد الشاعر بقوله « تطيف » ، أهو الدوران حول بناء ، وظل معنى الكلمة غامضًا ،ما هو هذا الطواف ؟ أهو مرتبط بشعائر دينية ما ؟ أم هو على أصل معنى الكلمة ؟ وكادت تزل الأقلام إلى القول بأنه إشارة إلى شعائر طقوسية ما ، لولا أن الكلمة ذاتها وردت في شعر زهير بن أبي سلمى ، وفي سياق مشابه ، وتدل على دوران البناة المهرة حول البناء ؛ ليحكموا بُناءه ، حيث يقول : « فدن تطيف به البناة مبوب »[1] . وقد يرد بيت كل ألفاظه واضحة ، وقريبة التفسير ، ولكن مع ذلك يظل غامضًا ، خاصة إذا كان فيه كناية ، والكناية تتحدث عن أمر من أمور حياتهم وعاداتهم وطبيعة عيشهم مما يُجهل في زماننا ، ومثاله قول المرقش الأكبر يهجو قومًا :

ويخرج الدخانُ من خَلَـل الســت ركَلَوْن الكَـوْدَن الأَصْـحَمْ [2].

مامعنى أن يقول : إن دخان نارهم يخرج من خلل ستر الخيمة مثل لون البغل الأصحم ، مامعنى ذلك؟ وبالعودة إلى الشعر وجدت بيتًا لزهير يمدح :

ويأتيهـــا الـــذي لايجتويهـــا إذا قصر الستور على الـدخان[3].

قال الشارح : « إذا اشتد الزمان أخفيت نيران القوم وراء الستور ، فلايظهر ناره إلا الكريم »

وفي بعض الحالات يحسن الاستعانة بكتب الأمثال أيضًا .

(البحث في الأسماء الواردة في القصيدة) :

١- اسم الصاحبة الوارد في المطلع إن كان غير واضح لابد من الكشف عنه في المعجم .

٣- في الشعر الجاهلي نحن نحلل شعرًا يفصلنا عنه ما يقارب ألفًا وخمسمائة عام .

---

(١) زهير بن أبي سلمى ـ ٢٠٦ .

(٢) المفضليات ـ ٢٤٠ .

(٣) زهير بن أبي سلمى ـ المصدر نفسه ـ ٢٨٨ .

والكثير مما سجله الشعر قد انطمست معالمه دوننا ، من علاقاتهم ، وتقاليدهم ، وطبائعهم ، وأيامهم ، بل حتى حيواناتهم ونباتاتهم ، حياة أخرى كاملة نحن الآن بعيدون عنها ، ولكي نفهم شعر ذلك الزمان ، علينا أن نفهم ذلك الزمان . فإذا ورد (اسم قوم) في القصيدة علينا أن نبحث في (كتب الأنساب) عن أصلهم ، ومناطق تواجدهم ، وما يرتبط بهم من دلالات ومعان .

وإذا وردت إشارة إلى (حادثة تاريخية) نبحث عنها في كتب التاريخ ، وما ارتبط بها ، وإذا ورد (اسم مكان) فنعود إلى المعاجم الجغرافية لنحدده ما أمكن ، مثل (معجم البلدان لياقوت الحموي) ، و(معجم ما استعجم للبكري) .

وإذا ورد (اسم حيوان ما) فنستعين بكتاب (الحيوان) للجاحظ ، بعد أن نكون قد بحثنا عنه في كتب المعاجم ، وإن نصَّ على صفة معينة فيه دون سواها ، بحثنا عن معنى هذه الصفة ، ووجه ذكرها دون سواها .

وإذا ورد (اسم نبات) نبدأ بكتب المعاجم العامة والخاصة ، وإن غَمُضَ فلابد من العودة إلى كتب مختصة بالنباتات وصفاتها ، وقد ترفق معها صوراً لتلك النباتات .

هذه الحقول ليس البحث ضمنها ملزمًا لكل كلمة ، وإنما لما يستشعر الباحث تجاه كلمة ما من أهمية ، أو ما قد يواجه من غموض يستعصي على محاولات التوضيح .

ولكن لابد من الحذر خلال مرحلة تفسير الألفاظ من آفتين خطيرتين،هما:

الإلف ، وضدها : الغلو ، أما الإلف فقد حذّر الشيخ محمود شاكر من خطره ، وما يفضي إليه من أحكام مضللة تجعلنا نمر مروراً عابراً على كلمة مكتنزة بمعان عميقة خصبة ، دون أن نوليها اهتمامًا يذكر .

وضد ذلك (الغلو) ، أي : أن نتعسف ونبالغ في تفسير كلمة ما ؛ فنحملها من الدلالات ما ليس فيها ، وهذا يقع فيه من يطبق المنهج الأسطوري على

الشعر الجاهلي ، فيجعلون الصاحبة رمزًا للمعبود الجاهلي (الشمس) [1] . يسبغ عليها الشاعر صفات إلهية[2] ونحو ذلك من التفسيرات الرمزية البعيدة ، القائمة على تأويلات لاسند لها من الكلام ولاقرينة ، وهذا مزلق خطير ؛ لأنه لايمكن للمفسر أن يرد الدلالة الحقيقية الظاهرة للفظ ما ، ويصرف المعنى إلى التأويل إلا بوجود قرائن لغوية في الكلام نفسه ترجح صرفه عن دلالته الحقيقية .

هذه العملية ينتج عنها فهم جزئيات القصيدة وألفاظها . وهذا ما يعرف بـ (التفسير الحرفي) .

يليه : مرحلة فهم القصيدة جملة : وله مراحل .

١- أن يحلل الكلام تحليلاً دقيقًا من النواحي التالية :

نحويًا : بمعرفة علاقات الألفاظ ببعضها ، والجمل ببعضها ، في ضوء قوانين النحو .

صرفيًا : بمعرفة ما شاع في القصيدة من صيغ معينة ودلالاتها .

بلاغيًا : بمعرفة ما ورد من ألوان بلاغية : تشبيه ، أو استعارة ، أو كناية وما الأسلوب الذي ساد أهو الخبري أم الإنشائي ، وينظر في الحذف والذكر ، والتعريف والتنكير . والوصل والفصل ، ونحو ذلك .

صوتيًا:يبحث هل هناك حروف معينة برزت في مقطع ما،وما دلالة ذلك.

٢- إذا كانت القصيدة بسيطة ، فيحلل الفقرات التي تكوّنها ؛ حتى يفهم جملة القصيدة ومعناها العام .

---

(١) انظر : نصرت عبد الرحمن ـ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ـ ص ١٢٧
على البطل ـ الصورة في الشعر العربي ـ ص٦٤
إبراهيم عبد الرحمن ـ الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية ـ ص ٢٦٢

(٢) ثناء أنس الوجود ـ رمز الماء في الأدب الجاهلي ـ ص ١٦٢

إما إذا كانت مركبة من فصول ، فبعد فهمه للألفاظ ، يقف على كل فصل فهمًا وشرحًا وتحليلاً ، واستخراجًا لمعناه ، وكذلك في كل فصل ، ثم يلتقط المعنى الجامع لمعاني الفصول معًا ، وأن يبحث في وجه ارتباط كل فصل بما قبله وما بعده ، ووجه مجيء ما جاء أولاً ، ووجه مجيء ماجاء ثانيًا وهكذا .

٣- كل هذا التحليل السابق للقصيدة يجب في النهاية أن يكون مبسوطًا أمام الباحث ، فيرصد العلاقات والروابط ليصل إلى (مقصد) القصيدة ، ويساعده في ذلك مجموعة أمور يمكن تسميتها (مفاتيح القصيدة) أو (مخابئ الأسرار في القصيدة) وهي :

أ- المطلع : تحمل المطالع عادة أسرار القصائد ، والشاعر البارع يغرس في مطلعه علامات أسلوبية تدل على مقصده ، وقد ذكر العلماء ذلك وسموه : (براعة الاستهلال) و (حسن الابتداء)

ب- الصور والتشبيهات التي سيطرت على جو القصيدة :

القصائد الرفيعة تبرز فيها صور ما في كافة فصولها ، أو فقراتها . فعلى الباحث التنبه إلى هذه (الصورة الأم) وكشفها . ثم عليه أن يتبين الصور الموحية المعبرة ، من الصور ذات الدور المحدود ، فالصور في القصيدة ليست على مستوى واحد .

وأمر آخر بالغ النفع ، وهو : تحديد المقطع الذي تتكاثف فيه الصور المجازية ؛ لأنه في كثير من الأحيان يمثل ذروة شعورية في القصيدة ، وليس الأمر بالكثرة للصور في هذا المقطع دائمًا ، بل لقوة الصورة ، فقد ترد صورة واحدة قوية تمتد إلى عدة أبيات ، وتمثل الذروة الشعرية للقصيدة .

ج ـ معجم القصيدة :

تشيع في القصيدة طائفة معينة من الكلمات يكثر تكرارها فيها هي ومشتقاتها ، ومترادفاتها ، بل وحتى أضدادها ، ورصد الباحث لهذا المعجم يقدم له دليلاً يهديه إلى معرفة الرؤية التي بنيت عليها القصيدة .

د ــ (اللون) الذي برز في القصيدة ، فتجد أن بعض القصائد يلونها الشاعر بلون معين ، وتدرجاته ، أوبلونين ، ومما يلحق بذلك ما يرتبط بذكر النور والظلام ، وكل ما يعبر عنهما .

هـ ــ حركة الزمن في القصيدة ، فيرصد المحلل بم بدأ الشاعر أبحاضر أم بماضي ؟ وإلى ماذا خرج من الأزمنة ، وبماذا ختم قصيدته زمنيًا هل ارتد إلى الماضي ، أم انطلق إلى المستقبل؟ أم تلبَّث في حاضره ؟

لأن الإجابة عن ذلك تقود أيضًا إلى رؤية القصيدة .

و ــ عاطفة الشاعر ، ما نوعها ، ومادرجتها هل تنامت؟ ، أم انطفأت . أم تدرجت؟ هذا الرصد كله سيكشف للباحث شبكة من عروق المعاني التي تربط نسيج القصيدة ، تلك العروق تنضم معًا لتشكل (المعنى الأم) الذي ترمي إليه القصيدة أو ما نسميه (وحدة القصيدة) .

ويلاحظ أن التحليل تحرك من الكل نحو الأجزاء، فغاص في كل تفاصيلها ، ثم عاد مرة أخرى إلى الكل لاكتشاف الوحدة .